مثاقفة الأنا للآخر في الرواية العربية رواية الأشجار واغتيال مرزوق نموذجاً

MOFTAH MOHAMED MOHAMED AL-BAKUSH[1]

ABSTRACT

Acculturation of 'I' from the Other in the Novel *al-Ashjār wa Ightiyāl Mazrūq*

Modern Arabic literature reflects a long history of the Western colonization of the Muslim World and this colonization generally results either in the rejection or acceptance of the colonizing culture. Specifically concerning the acceptance, it is related to the merger of two different cultures of Islam and the West as being expressed in literary domain. This merged cultures expressed in literary domain culminate in the formation of a structured identity of individual or collective values called acculturation. Thus, this study intends to analyse the acculturation of Western knowledge and worldview in modern Arabic novels as portrayed in the novel 'al-Ashjār wa Ightiyāl Mazrūq' by Abd al-Rahman Munif. It is found that the novels portray the confrontation of the stagnant Arabs and the advanced West, and the writer charges the Arabs with the accountability for the stagnation as he touches on the absence of freedom in the Arab World while at the same time, he is obviously fascinated with the freedom and intellectualism the West enjoys. Clearly, this is kind of acculturation of the novels from 'the other'.

Keywords: acculturation, al-Ashjār wa Ightiyāl Mazrūq, Islam, West, worldview

المثاقفة يمكن أن نراها من حيث الجوهر و من حيث الوظيفة ومن حيث الساحة، فمن حيث الجوهر أو التعريف فهي كما يراه مسعود عشوش (2009: 212) عملية التغيير أو التطور الثقافي الذي يطرأ حين تدخل جماعات من الناس أو شعوب بأكملها تنتمي إلى ثقافتين مختلفتين في اتصال وتفاعل يترتب عليها حدوث تغيرات في الأنماط الثقافية الأصلية السائدة في الجماعات كلها أو بعضها وهي بعكس الغزو الثقافي إذا كانت توافقية حوارية، لأنها لا تحمل في طياتها الرغبة في إضعاف الآخر وجعله تابعا، ومعاملته بنظرة استعلائية، لا تقوم على الاحترام والتسامح والاعتراف بثقافة الآخر واختلافه، لأن الهدف الأسمى من المثاقفة الاغتناء المتبادل باعتبارها رافدا مهماً تسعى كل أمة من خلاله إلى معرفة الآخر واستثمار ما لديه من قيم ومعطيات إنسانية وحضارية، وإلى تنمية كيانها الثقافي بشكل خلاق وغير مضرٍّ بمقومات الهوية القومية وثوابتها وقد تحمل معنى الغزو الثقافي إذا كانت موازين القوى غير متكافئة، مما يحملها معاني الهيمنة والصدام والاجتثاث والاستئصال.

[1] **Moftah Mohamed al-Bakush**, Ph.D. Student at Dept. of Arabic and Civilization Studies, Faculty of Islamic Studies, Universiti Kebangsaan Malaysia, 43600 BANGI, Selangor, Malaysia, email: alatree2002@yahoo.com.

ومن حيث الوظيفة فيرى عزالدين المناصرة (74 :1988) أن المثاقفة آلية من أبرز آليات حوار الثقافات والحضارات والعلاقات المختلفة بين الشعوب والأمم، تلك العلاقات التي نشأت منذ أقدم العصور،وأطلقت عليها مسميات عديدة مثل :الأخذ والنّقل والمحاكاة والتقليد والتأثير والتأّثر إلى أن برز علم الأدب المقارن في القرن التاسع عشر ليهتم أكثر بعلاقة أدب أمة ما ببقية ميادين المعرفة الأخرى المختلفة عنه لغة وثقافة، والكشف عن الصلات والوسائط التي أسهمت في تلك المثاقفة لذلك عني الأدب المقارن بدراسات الترجمة والاستشراق والاستغراب وأدب الرحلات وصورة الآخر. في نفس المعنى يقول مسعود عشوش (2 :2009) أن التفاعل الثقافي بين الأمم والشعوب هو الآلية التي ينبغي أن تحظى بالاهتمام والدراسة لذلك أضحت الثقافة أهم ميادينه البحثية التي يمكن أن تقوم بدور كبير ومهم في دراسة أهم آليات حوار الحضارات وتوجهيها.

ومن حيث الساحة أي ساحة الاتصال، فيرى محمد رجب الباردي (71 :1991) أن المثاقفة لا تحدث بين أمتين أو شعبين أو حضارتين متساويتين، وإنما تتمثل في علاقة غالب بمغلوب وقوي بضعيف، لذلك يرى أن مفهومها يعمل لصالح الغرب، فهي تبادل ثقافي بين شعوب مختلفة وبخاصة تعديلات تطرأ على ثقافة نتيجة احتكاكها بمجتمع أكثر تقدما ، تأثرت الرواية العربية منذ نشأتها إلى اليوم بالفكر الغربي عموما وبالرواية الغربية بالخصوص شكلاً ومضمونا، لذلك اعتبرها كثير من النقاد إلهاماً غربي الأصل، حيث سكن الغرب متنها وهوامشها، تغترف منه وتحيل إليه، على امتداد تاريخها الممتد لحوالي مئة عام، وإذ نلمس تأثير الرواية الفرنسية وإلى حد ما الروسية ما قبل الخمسينيات، وتأثير الرواية التاريخية للإنكليزي والتر سكوت (Walter Scott) إلى جانب الفرنسي الكسندر دوماس الأب (Alexandre Dumas) في تجربة جورجي زيدان الرائدة في كتابة الرواية التاريخية وبعد خمسينيات القرن العشرين بدأ التأثير الفرنسي في البداية ثم الروسي في التراجع التدريجي.

وفي مجال الاتصال، يقول محمد رجب الباردي (71 :1991) بدأ الروائيون العرب بتلقي تأثيرات الآداب الروائية الأخرى وخاصة الإنجليزية والأمريكية، تبعاً لما أتيح لهم قراءته في لغته الأصلية أو مترجما، فالتمثيل الإبداعي للغرب كان مبكرا نسبيا، بل واكب إلى حد كبير الاتصال الحضاري المتحقق بين الشرق والغرب، وعكست الكتابة الروائية صدمة اكتشاف الآخر الاوروبي منذ وقت مبكر، ولكن الغريب أن هذه الصدمة لم تتوقف منذ زمن الاكتشاف الأول لغرب التحديث إلى زمن العولمة الحالي.

ويقول جمال الغيطاني (335 :2000) إن عملية حدوث اتصال ثقافي بين العرب والغرب في شتى الميادين علمية كانت أو أدبية الشيء الذي أدى إلى ارتفع حركة الترجمة العربية في القرن التاسع عشر، حيث ترجمت أعمال مبدعين كبار وكان التأثر واضحا في مختلف الأصعدة فكانت الرواية كنمط جديد للكتابة عند العرب مدخلاً من مداخل العرب إلى الثقافة فالرواية العربية لا تعدو أن تكون واجهة ومرآة للرواية الغربية، وهذا ما يذهب إليه الباحث والأديب جمال الغيطاني حين يقول : من خلال قراءتي لبعض الإنتاج الروائي العربي، لاحظت

إنه يدور في فلك الشكل الروائي الذي وجدت به الرواية في العالم الغربي، بل إن بعض الكتاب تأثروا باتجاهات معينة في الأدب الغربي، وحاولوا نقلها إلى تجربتهم الروائية. وخلاصة الأمر نقول أن الرواية العربية تأثرت بالفكر الغربي في عصرها الحديث وكان ذلك نتيجة لعوامل كثيرة منها الإستعمار وتغريب الفكر الثقافي العربي وكذلك الإحتكاك المباشر بالغرب في عقر داره والأستفادة من أفكاره هذا الذي حصل لمعظم الكتاب والروائيين العرب في العصر الحديث .

ويقول صبحي الطعان (211 :1995) إن التلاقح الثقافي بين الرواية العربية والمنظومة الفكرية الغربية واضح في متن الرواية العربية، حيث جاءت محملة بالمقبوسات، أو تحويل أو تشرب أقوال نصوص من غربية مغايرة، أو متفقة في الجنس والنوع والنمط، على شكل تداخل نصوص أو تناص بينها وبين الفكر الغربي، في الصياغة والدلالة وطريقة البناء؛ أي أن النّص الروائي العربي في صيغته العلائقية يحاور بنى نصية غربية عديدة، قد يكون هذا الحوار محاكاة للبنية الهيكلية لبعض النصوص الغربية، أو يدخل في علاقات متشابكة مع نصوص أخرى كثيرة، مستدعيا، أو مقتطعا منها عناصر نصية بمثابة أجنحة نصية، تثري التجربة الروائية.

وفي هذه المقالة سوف ندرس جانبا من جوانب المثاقفة في الرواية العربية عند الروائي السعودي عبد الرحمن منيف الذي يعد واحدا من أبرز كتاب الرواية العربية في النصف الثاني من القرن العشرين ، وتأتي أهمية أدبه الروائي من فنيته العالية التي استفادت من تقنيات الكتابة الحديثة وما قدمته من أساليب سردية راقية . وقد شكل اهتمام الكاتب في موضوعه الروائي بالحوار الثقافي والحضاري بين العرب والغرب ينبوعاً من الينابيع التي أثرت أدبه بموضوعات أدبية جديدة وقادرة على منح أسلوبه السردي طاقة من الصراع المتنامي مُرتكزاً على ثنائية الغرب والشرق وسوف نقوم بالتركيز في هذه المقالة بإذن الله تعالى على رواية الأشجار واغتيال مرزوق لما تحويه من تثاقف في البناء الروائي والهكيلية الروائية والشكل مع رواية أخري غربية المحتوي .

رواية الأشجار واغتيال مرزوق

تعتبر هذه الرواية المحطة الأولى في عالم عبد الرحمن منيف التي نشرها سنة 1973م وقد تعمد الكاتب إجراء حذف في عنوان الرواية الذي من المفروض أن يكون كما يلي قطع الأشجار واغتيال مرزوق وبهذا فإن هذا العنوان يوحي بضرب كل ما هو جميل، وهو من ثم يشير إلى التقابل بين الخير والشر والصراع بينهما. الراوي في هذه الرواية وهي لعبد الرحمن منيف هو البطل نفسه، يروي الأحداث عن نفسه وعن الآخرين، والكاتب يقلب الخطاب على لسان الراوي على عدة أوجه، فهو يبدأ العبارة الأولى من الرواية مثلا مستخدماً ضمير المخاطب المفرد ليخاطب نفسه بالشكل التالي لا تضعف أسمع ما أقول لك'' ثم ينوع فيروي عن طريق الفعل الماضي عن

الآخرين في القطار المسافر فيه، ثم يعود إلى السرد العادي ليتحدث عن نفسه بضمير المتكلم المفرد والفعل الماضي ...الخ.

ويستغرق زمان هذه الرواية من بدايتها حتى الصفحة 288 ، وهو رحلة في قطار ساعات فقط كزمن حاضر، يتخلله انتقال ذهن البطل راوي الأحداث منصور عبد السلام بذاكرته إلى الماضي لاستعراض حياته منذ طفولته وتلمذته إلى كبره وسفره إلى بلجيكا لدراسة التاريخ، وتعرفه بكاترين ثم عودته إلى البلد وعمله أستاذا في الجامعة لتدريس مادة التاريخ، ثم تسريحه وبقائه ثلاث سنوات بلا عمل يعاني فيها معاناة شديدة من جراء البحث والمخبرين وتعب تحضير جواز السفر، وصولا إلى الزمن الحاضر، وهو في القطار مسافر إلى بلد عربي جنوبي مجاور حيث سيعمل مترجما مع مجموعة من الفرنسيين الباحثين عن الآثار، وهو لذلك ينتقل أحيانا بخياله إلى المستقبل ليتحدث إلى السيد دونال، أو السيد مارشان اللذين سيعمل معهما. فمعظم الزمن في هذه الرواية هو تنقل بين حاضر البطل في المقصورة التي يجلس فيها منذ بداية الرحلة مع إلياس حتى الصفحة 154 ، ثم مع المرأتين العجوز والفتاة الجميلة، بعد نزول إلياس نخلة من المقصورة وحضور المرأتين صفحة 155و288 ركزت على الراوي نفسه بطل الرواية منصور عبد السلام .

ثم تأتي بعد ذلك اليوميات والخاتمة التي تستغرق حوالي أربعين صفحة، وقد استغرقت اليوميات من حيث الزمان ستة أشهر ويتماشى المكان مع الزمان في الأشجار واغتيال مرزوق فهو (المكان) أولاً مقصورة القطار حيث يجري معظم زمن الرواية، وثانيا هو ما تتحدث عنه المذكرات الصحراء ثم هناك التنقل في المكان مع التنقل في الزمان عن طريق الذاكرة، ذاكرة إلياس نخلة أولا، وبهذا فإن المكان الآني الحي الذي نعيشه في الرواية هو مقصورة القطار، ثم المنطقة الصحراوية حيث يعمل منصور مع فرقة التنقيب عن الآثار، ويتضح من هذا أن البيئة التي يجري فيها حدث الرواية هي الشرق لا الغرب، فالغرب يتم استحضاره فقط عن طريق ذاكرة الراوي، ونظرا إلى الحجم المكاني الصغير الذي خصص للغرب بلجيكا في هذه الرواية، فإننا نلاحظ غيابا كاملا لمعالمه وذكر أماكنه الخ. بطل هذه الرواية هو منصور عبد السلام، فبالرغم من أن منصور قد تقاسم البطولة تقريبا مع إلياس نخلة، بحيث احتلت شخصية إلياس القسم الأول من الرواية، واحتلت شخصية منصور قسمها الثاني، فإن منصور ظل موجودا حاضراً من بداية الرواية حتى نهايتها، ففي قسمها الأول وجد بصفته راويا للأحداث مع بروز شخصه بين حين وآخر ولو بشكل محتشم على مستوى هذه الأحداث كما روى معظمها بنفسه، ثم إن منصور عبد السلام هو الذي من جهة أخرى يهمنا في موضوعنا العلاقة بين الشرق والغرب فمن هو منصور عبد السلام؟ وما هي طبيعة شخصيته؟ وما طبيعة علاقته بالغرب؟ وفي ماذا تتمثل هذه العلاقة؟ يمثل منصور عبد السلام المثقف العربي الشرقي المهموم المضطهد الذي يعاني من الكبت المتنوع في السياسة والجنس والعمل، إنه مثال المثقف في بلد متخلف تحاصره فيه كل الجهات، وينظر إليه بصفته إنسانًا غير مرغوب فيه، خاصة من قبل السلطة، ونحن من

البداية نلتقي مع منصور عبد السلام بصفته شخصا مهزوما، ولكنه متميز بشخصيته الخاصة، ويشبه من بعض النواحي إلياس نخلة، فهو بدوره ينخر الدود في دمه، فقد وصفته أمه وهو طفل بأنه لا يتكلم مثل باقي الأولاد ولكن إذا أراد شيئًا لا يمكن لأحد أن يمنعه (Munif 2005: 179).

جرب منذ صغره ممارسة عدة حرف وأعمال مثل إلياس نخلة، فعمل عند تاجر، وعد صاحب مكتبة، ثم ثار على الاستغلال وبدأ يهتم بالسياسة، وكان منذ صغره يكره خاله تاجر الجملة الذي يعارضه دائما ويبدي له كرهه بوضوح. تلك بعض ملامح منصور عبد السلام في صغره، ولكننا نلتقي به في الرواية رجلا مثقفا ناضجا أستاذا جامعيا، وإن كان مسرحا من العمل، تجاوز الخامسة والثلاثين أحرق كتبه التي لم يستطع بيعها بنصف ثمنها، سجين سابق، فهو إذن شخص غير عادي، جرب كثيرا من المحن، يصف نفسه فيقول افترقت عن كل ما حولي وربما إلى الأبد أصبحت أسير باتجاه سريع نحو المجهول. وهو على العموم يعيش في الأحلام، ومع الذكريات، ومشكلته الأساسية أنه ثائر على كل شيء مما جعله يقدم التضحيات باستمرار، يختلف مع الآخرين، مع المحيط، مع نظام الحكم، فيضيع كل شيء، ولا يحقق لنفسه شيئا، نظرته إلى الأمور مثالية وصارمة، فهو لذلك لا يرجو أحدا، لا يقترب من احد، أو يتذلل لأحد والاهتمام بالسياسة لدى منصور عبد السلام وراثي فقد ورث هذا الأمر عن أبيه الذي نفاه الملك إلى الهند بسبب أفكاره، وبدأت علاقة منصور بالسياسة من أول يوم دخل فيه المدرسة حين وجد نفسه يشارك تلقائيا في مظاهرة ضد الحكم سقط فيها قتلى وجرحى ، ومنذ ذلك الوقت يقول: بدأت أحلم كثيراً وأبكي. ومنذ ذلك اليوم بدأت أقول واتوهم وبدأت أركض في أحلامي كنت أسقط الخيالة عن خيولهم وأضربهم حتى يموتوا ، ولم أصرخ في ذلك السمين القصير الحاكم ولكن تمنيت أن أشد لحيته (Munif 2005: 186, 190 & 191).

ينبع تكوين شخصية منصور إذن من هذا الحقد الذي تربى معه منذ الصغر، وقد رباه الواقع والأحداث في نفسه خاله المسيطر، والتاجر، والمكتبي، ثم الحاكم..فمنذ البداية تقدم الرواية منصور بصفته شخصية مأزومة غاية التأزم خاصة وأن هذه الشخصية تقدم بعد اكتمالها، أي بعد مرورها بالتجارب والأزمات المختلفة التي سوف تدفع بها إلى نهايتها المأساوية المحتومة، فنحن من أول سطر في الرواية نجد منصور يشجع نفسه بعبارة على أنه يعيش أزمة فعلية حيث يقول لنفسه لا تضعف ..أتسمع ما أقول لك؟ لا تضعف ، ومنذ البداية يعيش منصور مع نفسه في منلوج متواصل لا ينتهي إلا بنهاية الرواية، وما هذا المنلوج سوى تعبير عن أزمة البطل الداخلية، واستعراض لحياته المتأزمة ماضيها وحاضرها ، ويتحدث مع نفسه قائلاً: بقيت لي بضع ساعات في هذا البلد، وبعدها أغادره !لن أرجع مرة أخرى، نعم لن أرجع وحتى لو رجعت فلن يكون ذلك قبل عشرين سنة، سأتلاءم مع عملي الجديد، وإذا طردتُ منه فسأجد عملاً ثانيا، أما إذا لم يلائمني البلد فسوف أفتش عن بلد آخر، المهم أن لا أرجع (Munif 2005: 17).

فأزمته تؤدي به إلى مناقشة نفسه كثيرا، فهو يناقشها في كل شيء، إذا حاور شخصا أقام بعد ذلك حواراً آخر بداخله يتعلق بحواره مع هذا الشخص، وإذا فعل شيئا حاور نفسه في موضوع هذا الشيء، الخ . فعندما يقدم له جاره في المقصورة إلياس نخله العرق يخاطب نفسه العرق في أول الرحلة يا منصور ..قلت لنفسك لن تشرب ..ستتركه، وها أنت تبدأ قبل أن تجف الإيمان التي أقسمتها. ثم يناقش بعد قليل موضوع الوطن ما هو الوطن؟ الأرض؟ التلال الخضراء؟ العيون القاسية التي ينصهر منها الحقد والرصاص وكلمات السخرية؟ الوطن أن يجوع الإنسان؟ أن يتيه في الشوارع يبحث عن عمل ووراءه المخبرون؟ وهو عندما يسأله رجال الجمارك في الحدود، يجيبهم أولا إجابة ذهنية ساخرة تعليقية، ثم بعد ذلك يجيبهم الإجابة الفعلية الضرورية تلافيا للمشاكل وهو بعدما يفارقه إلياس نخلة الذي ينزل في محطة بالحدود، أو بالأحرى يؤمر بالنزول من قبل رجال الجمارك يعود إلى هواجسه الداخلية أكثر أنت يا منصور وحيد، وحيد لدرجة لا يمكن للإنسان أن يكون وحيدا هكذا، ماذا تجديك الكتب التي قرأتها؟ لقد قرأت كثيرا، تعبت عيناك، أصابك الملل، وأخيرا وجدت نفسك جائعا ، ألا تعرف أن الكتب هي التي عذبتك وخلقت بينك وبين الناس هذه الفجوة الكبيرة؟ اعترف أحرق الكتب، مزقها (Munif 2005:21 & 197).

هو يشعر إذن بالعزلة، باختلاف عن الآخرين، وبكثير من اللاجدوى، لذلك فإنه لم يفتح قلبه حتى لإلياس نخلة فيجيبه عن أسئلته، أو يحدثه عن نفسه، كما فعل إلياس ببساطته وطيبته وتلقائيته فحكى لمنصور حياته بتفاصيلها، وبكل إخلاص تبرز أزمة البطل إذن من بداية الرواية، خاصة وأن التجربة بالنسبة إلى منصور تعرض كما ذكرنا سابقا بعد اكتمالها، فحتى الجنون الذي سينتهي إليه البطل قد تم التمهيد له من بداية الرواية، فالبطل مستغرق في الشرب والتدخين من جهة، وهو من جهة أخرى مستغرق في جو من الهواجس الداخلية وأحلام اليقظة والتصورات والأوهام التي وإن كانت إلى حد الآن مقبولة إلا أنها تعطينا صورة واضحة عن طبيعة هذه الشخصية المتأزمة المرشحة لكل الاحتمالات والتوقعات، كالإقدام على فعل يؤدي إلى السجن، أو الانتحار، أو الجنون، فشخصية منصور من خلال أفكاره وهواجسه وتصرفاته شخصية حادة ذات نظرة صارمة للواقع، ترى أن كل الأمور في هذا الواقع مقلوبة، ثم إن هذا الواقع ميئوس منه ومن إصلاحه، لذلك تتردد على لسان البطل عبارات قوية وصارمة إزاء هذا الواقع كالحرق والتدمير والثورة، أو ما شابه ذلك , ثم لابد أن تقاسم البطولة في هذه الرواية بين منصور عبد السلام وإلياس نخلة له معناه أيضا، فبالرغم من أنه يبدو للوهلة الأولى أن الشخصيتين متقابلتان، بمعنى أن إلياس يمثل البساطة والتلقائية والإقبال على الحياة بكل حيوية، ودون تفكير طويل في العواقب، أو تفلسف، بينما يمثل منصور الرجل المثقف، الحذر الذي يفلسف الأشياء، ويناقش الأمور في ذهنه، بتقليبها على جميع أوجهها، وهو الأمر الذي جعل أحد الدارسين يشبه بطلي الأشجار واغتيال مرزوق ببطلي رواية (زوربا) لكازانتزاكيس (al-Khatib 1991: 133).

بالرغم من ذلك فإن الجمع في هذه الرواية بين هاتين الشخصيتين له معناه ودلالته، فهي إشارة إلى أن الإنسان البسيط، العادي، المخلص النزيه، النظيف، سواء أكان عاملا بسيطا، أم مثقفا عالي الثقافة، لا يجد مكانه في مثل هذا المجتمع المشوه، وأن الذي يجد فيه مكانه هو الإنسان المزيف الانتهازي، الخ ..والدليل على ذلك أن كلا البطلين ينتهيان إما نهاية سيئة إلياس أو مأساوية منصور، ويضاف إليهما لتأكيد هذا الأمر واستكمال الصورة أستاذ الجغرافيا صديق منصور وزميله في العمل : مرزوق وللاسم هنا معناه ودلالته الذي يعثر عليه مقتولا، والذي يتحول موته في ذهن منصور في الصفحات الأخيرة إلى هاجس مركزي، أو رمز وبالرغم من محاولة الكاتب الفصل بين البطلين عندما خصص القسم الأول من الرواية لشخصية إلياس وقسمها الثاني لمنصور، كما جعل استحضار شخصية مرزوق يتم عن طريق ذهن الراوي، وهو الأمر الذي جعل محمد كامل الخطيب يحكم على هذه الرواية أنها بدت تقنيا مفككة بل بدت وكأنها ثلاث روايات، أو اثنتان على الأقل-al (Khatib 1991: 134).

لقاء الأنا مع الآخر في الرواية

اللقاء بالغرب في هذه الرواية أولا ضمني، فالكاتب يجعلنا منذ البداية نشعر بأن الشرق على عكس الغرب ما هو سوى سجن كبير يعاني فيه الرجال الملاحقات والسجن والتعذيب، والاغتيالات، وهو سجن أيضا من حيث العلاقة بين الرجل والمراة، ولذلك فإن منصور عبد السلام يعيش فيما يتعلق بهذا الموضوع بين عالمين مختلفين، عالم الحقيقة والواقع، وعالم الخيال، أما عالم الحقيقة والواقع فإنه يتمثل في تلك السنوات الجميلة، سنوات الدراسة التي قضاها منصور في بلجيكا، والتي التقى خلالها بكاترين، فجمع بينهما حب صادق وجميل وواقعي، ويقابل هذا العالم الواقعي من الجانب الآخر عالم الخيال الذي يلجأ إليه البطل في بلده عندما يتعلق الأمر بالتفكير في المرأة، ولا شك أن أفضل مثال لهذا العالم هو ذلك اللقاء المصادفة بينه وبين امرأة عجوز وابنة أختها في القطار، وقد مهد الكاتب لهذ اللقاء بشكل جيد عندما جعل المرأتين تدخلان مقصورة منصور والعجوز تحدث الفتاة عن وقاحة الرجال الذين كانوا في المقصورة الأخرى يتقربون إليها بالحديث، مما جعلهما مرغمتين على مغادرتها، إن هذا التمهيد أغلق في وجه منصور تمام كل باب للمحاولة، ولم يترك أمامه للاتصال بالفتاة الجميلة سوى باب الخيال الذي لجأ إليه، ليحادثها أحيانا، ويعريها أحيانا أخرى عن طريقه، خاصة وأنه معها في مقصورة واحدة، ولمدة ساعات من الزمن تحت حراسة عجوز صارمة.

هناك إذن عالمان مختلفان عالم الغرب، عالم الحرية، عالم الواقع، العالم الذي يمارس فيه الفرد رجلا أو إمرأة حريته بناء على قناعاته، وعالم الشرق، عالم الكبت والحرمان، الذي يتقوقع الإنسان فيه على ذاته، ليعيش معها في منلوج متواصل لا ينتهي، مع العلم أن أحداث هذه الرواية لا تجري في الغرب، ولكن في الشرق، وعلاقة

بطلها بالغرب تتمثل أولا في علاقته السابقة في بلجيكا بكاترين، وهو طالب، وثانيا في علاقته بدراسة التاريخ في ذلك البلد الأوروبي الذي مكنه من منهج جديد في دراسة التاريخ وفهمه، وثالثا في علاقته بمجموعة من الفرنسيين أعضاء فرقة التنقيب عن الآثار الذين عمل معهم في البلد العربي المجاور لبلده. وإن كان من الواضح أن أهم لقاء له بالغرب يتمثل أولا في علاقته بكاترين، وثانيا في دراسته للتاريخ ، ومع ذلك فإن لقاء منصور بأعضاء فرقة البحث له بدوره أهميته في تعميق صورة البطل وتوضيحها أكثر، وذلك عن طريق المناقشة التي تجري بينه وبينهم من حين لآخر، خاصة ما تعلق منها بالمقارنة بين الشرق والغرب العرق يا مسيو دونال أقرب إلى القلب بارد وجبار، ثم إنه رمز الشرق، كما الكونياك رمز لفرنسا، ونحن نشربه كي نمتلك الجرأة لمواجهة كل شيء : النساء، والقيظ، والمحققين ..لمواجهة كل شيء في هذا الشرق اللعين أنتم تشربون لكي تفرحوا ونحن نشرب لكي نتخدر (Munif 2005: 293).

يقول جورج طرابيشي (1988: 186-187) لا شك أن موضوع الشرق والغرب في هذه الرواية يجد عمقه أكثر في صورة العلاقة التي جمعت بين منصور وكاترين خاصة، وأن هذه العلاقة لم تكن علاقة عابرة، ولكنها علاقة حب صادق وصريح، فإذا كان لمنصور عبد السلام بعض التجارب الأخرى مع النساء كعلاقته بالفتاة المجرية التي قضى معها ذات مرة ثلاثة أيام سافرت بعدها إلى بلدها، وعلاقته برحاب زمن الدراسة التي أحبها وأحبته ثم تزوجت غيره، وسهام ابنة الحاج زهدي التي خطبها من أبيها الذي غالى في المهر عندما كان منصور يشتغل أستاذا، ورفضه عندما سرح من العمل، إذا كانت له هذه العلاقات التي مرت بحياته فلم تترك أثرا كبيرا فيها، فإن العلاقة التي تركت أثرها الواضح الذي لا يمحى هي علاقته بكاترين البلجيكية. يرى جورج طرابيشي أن رواية الأشجار واغتيال مرزوق تخصص فصلا واحدا قصيرا لموضوع الاتصال بين الشرق والغرب، هو الفصل الخاص بموضوع العلاقة بين منصور وكاترين . وهذا من ناحية صحيحة إلى حد كبير، إذ تخصص الرواية الفصل الحادي عشر (11) من القسم الثاني لهذا الموضوع، ولكنها تذكره أيضا في الفصل الثاني عشر (12) إلا أن ما يجب ملاحظته أن صورة كاترين تظل تخيم على ذهن منصور وتفكيره بعد ذلك طويلا، كما توجه هذا التفكير وتؤثر فيه كلما تعلق الأمر بتفكيره بالمرأة في بلاده.ويرى طرابيشي أيضا أن علاقة منصور بكاترين هي أول علاقة حب بين شرقي وغربية غير محكومة لا بعداء تاريخي، ولا بمشروع انتقام سري أو سافر، ولا بالرضة الاستعمارية، ولا بعقدة النقص الدونية، ولا بصراع مزعوم بين الروح والمادة، ولا حتى بالشهوة الغرائبية، وهي من هذا المنظور أول علاقة حب إيجابية بين ابن البلد وأجنبية، ومع ذلك إن ثمة هوة سحيقة تفصل بين منصور عبد السلام وكاترين، أو بالأحرى بين عالميهما.

وبالفعل فإن الانسجام الكامل هو الذي ظل يجمع بين منصور وكاترين، ومع ذلك فإن هذا الانسجام لن يؤدي إلى النهاية المنطقية الطبيعية، وهي الزواج، لماذا؟ لأن هناك ببساطة هوة عميقة تفصل بين البطلين، ومنصور لا كاترين هو وحده الذي يعي هذه الهوة كل الوعي ولا يستطيع أن يقفز عليها، على العكس تماما من كاترين التي تتعجب من أفكار منصور يخاطب منصور كاترين نحن عالمان التقينا بالصدفة، وبعد قليل سوف نفترق إن لقاء مثل هذا لا يمكن أن يستمر مهما حاولنا، ولا تتعبي نفسك كثيرا، ليس لأني لا أريدك، ولكن لأن لقاء مثل الذي تحلمين به سيكون قصيرا وفاجعا ..نحن كما قلت لك عالمان ...عالمان. ثم يضيف بعد قليل أنا احبك يا كاترين ..ومنذ الأيام الأولى راودتني أفكار رائعة، كنت أتصور أنك المرأة الوحيدة التي أبحث عنها، ولكن عندما أفكر بذلك الشبح الذي يسمونه الوطن أقتنع تماما انك آخر إمرأة يمكن أن تصلحي هذا لي (Munif 2005: 214-217).

فمنصور وليس كاترين هو وحده من يعرف حقيقة التناقض بين الشرق والغرب، هو يعرف المجتمعين معا، مجتمعه الشرقي الذي ينتمي إليه بالولادة والوراثة ومجتمع كاترين الغربي الذي تعرف عليه بفعل التجربة، ولذلك فإن حكمه على حقيقة التناقض بين المجتمعين، هو الحكم الصحيح وليس حكم كاترين التي تربطها بالشرق علاقة وهمية خيالية أكثر منها واقعية. في هذا الفصل(11) يمنح الكاتب نفسه كامل الحرية لكي يتهجم بلسان البطل على عيوب الشرق، معددا هذه العيوب والنقائص الدالة على التخلف بشكل مباشر كاترين .. بلادي كبيرة تشرق عليها الشمس ولا تغيب إشارة إلى الشرق كله والناس عندنا لا يعرفون شيئا غير أن يتناسلوا، إنهم كثيرون جدا، وكل يوم يزدادون، إنهم ينامون ويتناسلون في الليل والنهار، العائلة الصغيرة عشرة، والناس يأكلون الخبز والزوان، لأنهم لا يجدون شيئا آخر يأكلونه، إنهم يبكون كثيرا، يريدون أن يكفروا عن شيء ما، ويضحكون بعصبية، وربما أصبحوا من الحزن مرضى، وكذلك من الجوع وينتقد الكاتب بعد هذا تفشي الأمية، وطرق الزواج غير المتكافئ، والأغنياء وأصحاب النفوذ الذين يسميهم ملوكا، ولكنهم مذلون أمام من هم فوق مستواهم الملوك عندنا يا كاترين لا يشبهون ملوككم أبدا، كل رجل عندنا ملك ..وهؤلاء الملوك الصغار يضربون زوجاتهم.. ويصرخون في وجوه الأطفال، أما إذا التقوا بالملوك الذين هم أكبر منهم فإنهم يجثون على الأرض ويقبلون التراب تحت أرجلهم ..والملوك الكبار يسجدون للذين اكبر منهم، حتى يصل الأمر أن جميع الملوك يسجدون لملك واحد ..وهذا الملك الكبير لا يعرف القراءة والكتابة، له زوجات أكثر من جميع الملوك الآخرين .. وربما كانت له زوجة بلجيكية، وقد يكون اسمها كاترين ..لا أريد أن أحزنك يا كاترين، ولكن كل شيء في بلادنا مقلوب على رأسه، ويريد أنبياء من أجل أن يوقفوه على قدميه، وهؤلاء الأنبياء ليسوا موجودين، ولكن كل رجل يجب أن يحاول، نعم أن يحاول لعله يكون نبيا وعلى العموم فإن حوار منصور مع كاترين أو بالأحرى خطابه لها مركز كله على إبراز التناقض بين بلده وبلدها، بين الشرق والغرب وحتى الشمس في بلاده حارة مثل النار، بينما الثلج لا تعرفه بلاده والناس في شرقه لا يرقصون كما يريدون وإذا فعلوا فإنهم يرقصون بشكل وحشي

كالغجر، وعندما تقول له كاترين إنه يشبهها في كل شيء، في الأكل والرقص والموسيقى، يرد عليها بأنه فقط تعود على حياتهم، فأصبح واحدا منهم، أما الناس في بلاده فإنهم يختلفون كثيرا عنه، ثم يقول لها، نحن كسالى، ونكذب، ونرى أن الأرض ليست كروية ..وننجب الأطفال كثيرا، وإذا جاءت لأحدهم رسالة حملها مسيرة يوم ليقرأها له رجل دجال يضع على رأسه لفة، وهذا الرجل الذي يترنم بقراءتها يأخذ مقابلا لذلك دجاجة وعشرة أرغفة خبز، وربما تزوج ابنة صاحب الرسالة التي لا يزيد عمرها عن إحدى عشر سنة، وتكون هذه الزوجة العاشرة (Munif 2005: 216).

يقول جورج طرابيشي (1988: 187) كاترين لا تفهم على منصور أقواله هذه، وتتهمه بأنه يتعمد افتعال الغموض، ويتكلم لغة لا تناسب دراسته ومستواه التعليمي، وأن اللغة التي يستخدمها هي لغة البحارة وقطاع الطرق وبالرغم من أن هذه الرواية تشكل في أحد وجوهها جزءاً من حملة النقد الذاتي والتجربة الداخلية التي اجتاحت الوطن العربي في أعقاب الهزيمة الثالثة فإن الذي تركز عليه أكثر حسب رأينا هو إبراز الفارق الحضاري الكبير بين الشرق والغرب، فالشرق في هذه الرواية هو الشرق المستقل، لكن المتخلف، والعصر الشرقي هو عصر الاستبداد الشرقي.

ويقول محمد رجب البارودي، (1991: 294) أنا لا نتفق مع أحد الدارسين في حكمه على منصور عبد السلام بأنه قد استلبته الحضارة الغربية بصفة واضحة، فهو يشبه كاترين في كل شيء في الاكل والرقص والموسيقى وقد تعود على حياتهم وأصبح وقد نقل هذا الدارس بالضبط ما قالته كاترين لمنصور، وهو ما أشرنا إليه قبل قليل ولكن منصور لم يوافق على ذلك، والأمر واضح في الإجابة التي مرت بنا قبل قليل أيضا، فمنصور ليس فردا منعزلا يمكنه الذوبان في المجتمع الغربي، ولكنه يمثل مجتمعا كاملا، وهذا المجتمع يختلف عن مجتمع كاترين، ثم إن هذا الدارس يشير إلى انبهار منصور بالغرب، وكأن هذا الانبهار جاء هكذا دون أسباب ولا مقدمات، بينما الأشجار واغتيال مرزوق تقول غير هذا، فلو أن الدارس تناول بناء شخصية البطل من جوانبها المختلفة، وببعض التعمق في التحليل لتوصل إلى أن منصور ليس معجبا بالغرب هكذا مجانا، فهو ليس أديب طه حسين مثلا أو من شابهه ولكنه في إعجابه بإيجابيات الغرب ينطلق قبل كل شيء من رؤيته الانتقادية لسلبيات الشرق.

ويقول محمد الخطيب (1991: 135) لقاء الشرق بالغرب لدى عبد الرحمن منيف في هذه الرواية إنه ليس لقاء حضارتين مختلفتين من حيث الأساس، أي من حيث المنبع والطريق والمصب، كما عند الحكيم مثلا، لكنه تحديداً لقاء التخلف بالتقدم، لقاء يجعل المتخلف كشخص يحاول، وقد اكتسب الحضارة الحديثة العودة إلى مجتمعه ليشارك في إيصال هذه الحضارة إلى هذا المجتمع بمعنى إن البطل ليس رافضا من حيث المبدأ حضارة الآخر، ولكنه في الوقت نفسه واع كل الوعي بالاختلاف بين حضارته وحضارة هذا الآخر، ولأنه يمثل في مجتمعه الرأي المخالف، ويمثل الأقلية، ولأن الطبقة المسيطرة في هذا المجتمع لها مصلحة في دوام التخلف فإنها تضطهد

حامل المشعل، وهذا الاضطهاد يؤدي من جهة أخرى إلى ظهور المناضل السياسي الحامل للأفكار التقدمية الثورية الذي مثله منصور عبد السلام أحسن تمثيل.

أوجه المثاقفة في الرواية

يقول صبحي الطعان، (111 :1995) من نماذج المثاقفة في الرواية العربية ذلك التشابه الكبير في طريقة البناء الروائي لبعض الروايات العربية مع نظيراتها الغربية، مثل رواية(الأشجار واغتيال مرزوق) النص المركزي الأول في عالم عبد الرحمن منيف الروائي ، الذي تناسل منه كل رواياته اللاحقة، وتتعالق في طريقة البناء الهيكلية االروائية مع رواية غربية سابقة تمثل أيضا النص المركزي لها؛ حيث دخلت معها في علاقات تثاقفية متعددة، تبدأ بطريقة بناء الرواية ، وفي الصياغة القائمة على الحوار المبني على االسؤال والجواب، بل أحسب إن القارئ لرواية زوربا اليونانية يستشف أن طريقة بنائها قامت على أساس الحوار بين صوتين بارزين من بدايتها إلى نهايتها، هما :صوت الرئيس وصوت زوربا . ويبدو أن عبد الرحمن منيف قد قرأ هذه الرواية واستفاد منها كثيرا في طريقة بناء روايته الأشجار واغتيال مرزوق بل حتى في طريقة بناء الشخصيات الروائية ، والتصور العام للحياة التي أساسها الصبر والعمل، إذ تقوم هذه الرواية على الهيكلية نفسها التي قامت عليها رواية زوربا فمثلما في رواية روزبا يطالعنا في القسم الأول من رواية الأشجار واغتيال مرزوق رجل مثقف نعرف بعد قراءة العديد من الصفحات أن اسمه منصور عبد السلام، أستاذ جامعي يتقن اللغتين العربية والفرنسية، وحاصل على مؤهل عال في التاريخ من جامعة بروكسل، وقام بتدريس التاريخ في الجامعة مدة ثلاث سنوات، يطرد من وظيفته فيقرر الرحيل إلى الجنوب إلى خارج الحدود، بعد أن قبلته فرقة فرنسية مختصة في عالم الآثار والماضي للعمل معها مترجما.

ومايستشفه القارئ أن رواية (الأشجار واغتيال مرزوق) قد استفاد كتابها في تصميمها وبناء هيكلها من رواية زوربا حيث قامت على صوتي منصور وإلياس الأول يسأل بإلحاح لتتكشف له أسرار شخصيته فيزداد إعجاباً به ، والثاني يسترجع ذكرياته في الحياة وحكاياته مع الناس إلى أن يحصل الفراق ، ما يدل على أن هناك تعالقاً نصياً في الهيكلية وتثاقفاً من طرف واحد بين الرواية العربية والغربية الطرف العربي اللاحق ولا ينحصر هذا التعالق النّصي في طريقة البناء الروائي العام فقط، بل تعداه إلى بناء الشخصية الروائية والصياغة، حيث نلحظ شبهاً كبيرا بين الشخصيتين المحوريتين، زوربا اليوناني ونظيراتها في رواية الأشجار واغتيال مرزوق في الأبعاد الجسمية والنفسية والفكرية.

يقول أحمد عبد الحليم عطية (113 :1997) يتجلى لنا أن تصور الأنا الثقافي العربي بأبعاده المختلفة دون آخر، تصور غير منطقي ولا واقعي فإذا كان النص الروائي يغترف من ألف بؤرة من بؤر الثقافة، فإن الثقافة الغربية قد مثلت في الرواية العربية الألف بؤرة .والنماذج التي قدمناها آنفا تعد غيضا من فيضِ التثاقف الروائي

العربي للغرب. وسوف يطول بنا المقام لو رحنا نتتبع ذاك النسيج من الاقتباسات والإحالات وتشرب الفكر الغربي، وأصداء الثقافة الغربية في المتن الروائي العربي، تلك الثقافة التي أصبحت بمثابة النور الذي يضيء المناطق المعتمة في الذات العربية، خاصة وإن عديدا من رواد الإصلاح والمفكرين العرب، ومنهم بعض الروائيين أو ما يسمون بالتنويريين، رأوا أن هذا التنوير يتم في الداخل، لكن الشعلة الكبيرة من هذا النور تقتبس من الخارج ولا ضرر في ذلك لأن النور من جنس النار يقتبس منها، فتتحول النار إلى نور يهدي تائه البيداء.

إن لقاء الشرق العربي بالغرب الأورو أمريكي على صفحة الرواية العربية لم يكن لقاء عدائيا وصداميا يتربص كل منهما بالآخر فقط، وإنما كان لقاء يستمد أهميته وخصوصيته من الجانب الإنساني والثقافي المشترك لذلك جاء النص الروائي العربي حافلاً بالانفتاح على الفكر الغربي وفلسفاته، بوصفه خلفية نصية ومعرفية يستحضرها الروائي العربي، ويعقد الحوار معها بكيفيات فنية متعددة، ثم يدمجها في تجربته الروائية الخاصة، ويجعلها منسجمة مع فضاء نصه الجديد. يظهر عبد الرحمن منيف في روايته الأشجار واغتيال مرزوق نمط من أنماط الفكر الحضاري المتقدم الذي يتفوق على العالم العربي المتخلف والمتأخر من خلال مقارنته مع الغرب بعد أن عاش في الشرق والغرب إنه يُعلى من شأن الغرب وكانت مثاقفة الأنا للآخر في روايته الأشجار واغتيال مرزوق مثاقفة دونية وجاءت متأثرة بالفكر الغربي لقد حرم المواطن العربي حسب رؤية منيف من أبسط حقوقه وهو الحق في حرية التفكير والتعبير عن رائه . جاءت رواية الأشجار واغتيال مرزوق حسب وجهة نظري مثاقفة لرواية زوربا اليوناني ويبدو أن عبد الرحمن منيف قد قرأ هذه الرواية واستفاد منها كثيراً في طريقة بناء الشخصيات الروائية والتصور العام للحياة التي أساسها الصبر والعمل حيث تقوم هذه الرواية على الهيكلية نفسها التي قامت في رواية زوربا . وقد مثل فن الرواية الجنس الأدبي العربي الأكثر استيعاباً للتقنيات الحديثة في الغرب، إذ أنها لا تزال تستفيد من التجارب الفنية الغربية، وتستقي منها تقنياتها، حتى ليبدو الروائي العربي وكأنه يريد اكتشاف ذاته ليبوئها مكانة في العصر الحديث بأدوات الغرب،إنه ينهل من ماء الغرب ليروي عطش روحه وعطش متلقيه من بني جنسه .

References

Al-Quran.

`Ashush, Mas`ud. 2009. *al-Muthaqafah abraz aliyyat hiwar al-hadarat*. Riyadh: Saudi Arabia Yemenitta.

`Atiyyah, Ahmad `Abd al-Halim. 1997. *Jadal al-ana wa al-akhar: Qirat Naqdiyyah fi Fikr Hasan Hanafi.* Qahirah: Maktabah Madbuli.

Al-Baridi, Muhammad Rajab. 1991. *Al-riwayah al-`Arabiyyah al-mu`asarah*. Egypt: al-Hay`ah a-Misriyyah li al-Kitab.

al-Ghitani, Jamal. 2000. *Ba`d mukawwinat `alamay al-Riwa'i*. Beirut: Arab Institute for Studies and Publishing.

al-Khatib, Muhammad Kamil. 1991. *Al-mughamarah al-mu`aqqadah al-Sharq wa al-Gharb.* Dimashq: Dar al-Talia`ah.
al-Munasarah, `Izz al-Din. 1988. *Muqaddimah fi nariyyah al-muqaranah.* Amman: Dar al-Karmal.
Munif, `Abd al-Rahman. 2005. *Al-ashjar wa ightiyal Marzuq*. Beirut: Dar al-Talia`ah.
al-Ta`an, Subhi.1995. *`Alam `Abd al-Rahman Munif al-Riwai: Tanzir wa injaz*. Damsyiq: al-Nāshir.
al-Tarabish, George. 1988. *Sharq wa Gharb rujulah wa unathah*. Beirut: Dar al-Talia`ah.